الإمبريالية في آخر تجلّياتها الثقافية

تشظية التراث الوطنيّ العراقيّ

. كيرستن شايد* .

الصور التي تَروْنها على التلفزيون تروْنها مرّةً بعد مرّة، بعد مرّة، بعد مرّة. وهي اللقطة نفسُها لشخصٍ ما يَخرج من مبنًى ما حاملاً مزهريةً، تروْنها عشرين مرّة، وتفكّرون: «يا سلام، أكانت هناك مزهرياتٌ بهذه الكثرة؟» (الحضور يَضْحك). أيُمْكن أن يكون هناك مزهرياتٌ بهذه الكثرة في البلد كلّه؟»[١]

دونالد رامسفلد،

١١ نيسان (أبريل) ٢٠٠٣

العام ١٧٩٨: ذاتَ يوم صيفيّ حارّ وممطر وصلتْ إلى شان دومارس في باريس قافلةٌ غريبةٌ من المَرْكبات، وَسْط أبّهةٍ عظيمة. عرباتُها المئتان والخمسون مزيّنةٌ بالأكاليل واليافطات، وطافحةٌ بالمنحوتات العريقة، ولوحاتِ عصر النهضة، ومخطوطاتِ العصور الوسطى، والسجاجيدِ المطرَّزة، والآلاتِ العلمية. بكلمة، كان في تلك العربات بحسب ناپوليون نفسه «كلُّ ما هو جميلٌ في إيطاليا.»[٢] برفقتها جوقةٌ عسكريةٌ تصْدح: «روما لم تعد في روما. إنّها الآن في باريس!»[٣] كانت الكنوزُ المحمولةُ في العربات غنائمَ حربٍ استولى عليها ناپوليون بعد أن أرسل مستشارين هم خبراء فنيّون مشهورون بعلاقاتهم الحميمة بأثرياء إيطاليا ليَنْتقوا منها ـ بيتًا بيتًا ـ أفضلَ ما في هذا البلد من تراث فنيّ. وكان اسمُ موكب المسروقات: «عيد الحرية.»

العام ٢٠٠٣: إمبراطورية أخرى، و«عيدُ حُرية» آخر، مع فنّ مسروق هنا أيضًا. قد لا يكون هذا مثالاً على التقليد الحَرْفيّ الذي تقوم به الإمبراطوريةُ الأميركيةُ الجديدة لأفعال الإمبراطوريات السابقة، غير أنّه تجلٍّ آخر لدور الفنّ في الصعود الإمبرياليّ. والجدير بالذكر أنّ الاحتفالَ الناپوليونيّ جرى يومَيْ ٢٧ و٢٨ تموز (يوليو) ليتزامن مع ذكرى سقوط روبسپيير، وليبيِّن أنّ الفنّ الراقي هو «ثمرةٌ للحرية» وانتصارٌ على الإرهاب.[٤] ورأت پاتريشا ماينارادي، الباحثة في تاريخ الفنّ، أنّ احتفال ١٧٩٨ أشّر على انتقال العاصمة الثقافية والسياسية من روما القرنِ الثامنَ عشر إلى باريس القرنِ التاسع عشر. كما أنّه بَرَّأ الثوّارَ الفرنسيين من إفراطهم في استخدام العنف، بإعلانه انتصارَ الثقافة العقلانية اليونانية التي مثّلتْها التماثيلُ المنهوبة.[٥] ولكنْ قبل أن نُعلن أنّ بوش الابن نابوليونٌ ثانٍ علينا أن نُقرّ بوجود فروق واضحة بين السلف والخلف.

أولاً، إنّ المسؤولين عن أعمال السلْب في العراق «المحرَّر» بَقُوا (حتى هذه اللحظة) مجهولين، خلافًا للصوص باريس. ثانيًا، إنّ مآل الكنوز العراقية المسروقة مازال غيرَ معلوم، خلافًا لمآل الغنائم الفنية الإيطالية. ثالثًا، مع أنّ جورج دبليو بوش أعلن الانتصارَ على الإرهاب فإنّه لم يُعْلن انتصارَ أيٍّ من المُثُل التي جسّدها فنُّ بلادٍ ما بين النهرين. فإذا قلنا إنّ ناپوليون سعى إلى أن يَنْقل التفوُّقَ الرومانيَّ الحضاريّ والسياسيّ إلى باريس، فماذا نقول عن بوش وتبديدِه العابثِ لمجد العراق الحضاريّ؟ وكيف ستُنهي جوقةُ بوش نشيدَ عيدها: «إنّ بغداد لم تعد في بغداد. إنّها الآن في...»؟

---

* ـ باحثة أنثروبولوجية. عضو في هيئة تحرير الآداب. يصدر لها العام القادم كتاب عن الفنّ التشكيليّ اللبنانيّ.

١ ـ Donald Rumsfeld, Pentagon News Briefing, 11/4/2003, U.S. Department of State, http://usinfo.state.gov.

٢ ـ Patricia Mainardi, "Assuring the Empire of the Future: The 1798 Fête de la Liberté," in *Art Journal* (Summer 1989), p. 155.

٣ ـ Ibid.

٤ ـ Ibid, p. 158.

٥ ـ كان يُعتقد أنّ المنحوتات التي جاء بها ناپوليون من روما هي أعمال إغريقية من العصر الپيريكليسيّ تُظهر الديموقراطيةَ الأثينية والفكرَ الأرسطوطاليسيّ.

تساءل رامسفلد متهكّمًا: «يا سلام! أيمكن أن يكون هناك مزهريات بهذه الكثرة في العراق؟»: يمينًا، مزهرية تعود إلى ٥٠٠٠ سنة (كانت) توجد في المتحف الوطنيّ العراقيّ

لكي ندرك الأَجَندةَ المُعَدَّةَ للعراق وللمنطقة بعد الحرب الأخيرة، والخطواتِ الملائمةَ لمقاومة هذه الأجندة، علينا أن نُرهف السمعَ إلى الجوقة التي رافقتْ أيامَ السلب في العراق. وحقيقةُ الأمر أنّ ثمة جوقاتٍ متعدِّدةً صَدَحتْ بأنغامها لتَفْرض تأويلاتِها للأحداث. وسأَسْتعرض هنا نغمتين: نغمةَ «التفوُّق الحضاريّ» التي رتّلها رامسفلد، مايسترو الصحافة الأميركية المؤيِّدةِ للحرب؛ ونغمةَ التشييء التي رتّلها دعاةُ السوق الحرّة.

◆ ◆ ◆

بحلول مساء الجمعة ١١ نيسان (أبريل) ذاعت أنباءُ السلب التي تعرّضتْ لها بغداد في وسائل الإعلام العالمية. وفي المؤتمر الصحافيّ الذي عُقد في وزارة الدفاع الأميركية ذلك اليوم عَمَدَ دونالد رامسفلد إلى إسباغ أجواء رومنطيقية على الحدث، زاعمًا أنّ المَشاهد تُظْهر «العراقيين المحرَّرين وهم يحتفلون بحريّتهم الجديدة.»[١] وحين تساءل أحدُ الصحفيين ما إذا كانت «الفوضى في بغداد ستمْحو الإرادةَ الطيّبةَ التي بَنَتْها الولاياتُ المتحدة،» جاء جوابُ رامسفلد مَقْطعًا كوميديًا صار يُعْرف فيما بعد بـ «التعليق المزهريّ» (أنظرْ مَطْلعَ هذا المقال).

إنّ محاولة رامسفلد الاستهانةَ بما بات أمرًا محرجًا للقوات الأميركية لم تكن لتستثير ضحكَ الصحفيين لو لم تَسْتندْ إلى افتراض مسبّق مشترك. ولهذا ستكون ملاحظةُ رامسفلد وتلقّي الصحفيين لها جديرَيْن بالتأمّل لما يَكْشفانه من آراء أميركية رسمية (ومؤيّدة للحرب) إزاء الثقافة والحضارة في العراق. فقد اعتَبر كثير من المعلّقين أعمالَ النهب مؤشّرًا على نقصٍ في الاستعدادات الحربية، واتُّهم رامسفلد بعدم إرسالِ ما يكفي من القوات للقيام بالواجبات القانونية المترتّبة على الغازي المحتلّ. غير أنّ رامسفلد، بقلبه هذه التهمةَ رأسًا على عقب، ألمح إلى أنّ النقص هو في **المجتمع** العراقيّ: فإذا كانت المزهرية تدلّ على وجود حضارةٍ متطوِّرة، فكم مزهريةً يمكن أن توجد في مجتمعٍ مكوّنٍ من الرمل والنفط والديكتاتورية؟! وهناك كثير من الإعلاميين الأميركيين (والمؤيّدين للحرب) يردّدون «التعليقَ المزهريّ» في تفسيراتهم اللاحقة لعمليات النهب في العراق.

إذا كان جوابُ رامسفلد عن السلب هو نفيَه التهكُّميّ لوجود مزهرياتٍ «بهذه الكثرة» في العراق، فإنّه ما لبث أنْ أوحى أنّ العراقيين لا يحتاجون إليها ولا يستحقّونها أصلاً. فحين واصل الصحفيّون طرحَ الأسئلة عن عمليات السلب قال بلهجة صاخبة: «إنّ الأحرار أحرار في ارتكابِ أخطاء، واقترافِ جرائم، وفعلِ أمور سيِّئة.»[٢] إنّه، بربطه بين الجرائم والحرية، كان يومئ إلى أنّ السرقة هي الوجهُ الحقيقيّ غيرُ المكبوت للشعب العراقيّ. وحين سُئل الجنرال فِنْسِنت بروكس عن مسؤولية الولايات المتحدة عن أعمال السلب التي يبدو أنّها «جَرَتْ على مرأًى من قوات التحالف،» أجاب بحدّة: «السلب تمّ على يد العراقيين. هذه هي النتيجة الحاسمة. لقد جرى في الحقيقة على مرأًى من الشعب العراقيّ.»[٣] هذا الموقف عينُه عَبَّر عنه بصلافةٍ أكبرَ جنديٌّ من جنود المارينز لمراسل وكالة رويترز حين قال: «العراقيون الملاعين سيَسْرقون أيَّ شيءٍ إذا سمحتَ لهم بذلك.»[٤]

هكذا بات مصيرُ التحف والكنوز الحضارية العراقية محكومًا بتصرُّفات

---

١ ـ Donald Rumsfeld, op.cit.

٢ ـ Ibid.

٣ ـ Brigadier General Vincent Brooks, CENTCOM Operation Iraqi Freedom Briefing, 16/4/2003, www.centcom.mil.

٤ ـ Brian Cloughley, "Op-ed: Rumsfeld's Bad Things," in *Pakistan Daily Times*, 16/4/2003.

لقد بات السلبُ أمرًا محرجًا للقوات الأميركية: لافتة تقول «بوش يساند الناهبين» (بغداد، ١٢ نيسان)

الشعب العراقيّ وحده، وعلى مشاهدي التلفزيون في العالم أن يتقبّلوا أنّ هناك أناسًا «أحرارًا يَفْعلون أمورًا سيّئة.»(١) ومن ثم فإنّ أفضلَ ما تستطيع القواتُ الأميركيةُ عملَه هو أن «تَخْلق بيئةً» من الأمن، وأن «تثقّف» العراقيين حول مخاطر السلب. ولهذا عَرَضَ الجنرال بروكس أمام الصحفيين كتيّباتٍ أصدرها الجيشُ الأميركيّ لتعليم العراقيين مساوئَ السلب (لحسن الحظ أنّ الكتيّبات باللغة الإنكليزية، علّ الجنودَ والصحفيين الأميركيين يَعْتبرون هم أيضًا!)(٢) وفيما تَواصلَ السلْبُ، بتشجيعٍ أو بغضِّ نظرٍ من قوات التحالف الذي أخذ يسمِّي كلَّ عراقيّ «علي بابا،»(٣) رُحنا نَسْمع مرّةً بعد مرّة كلامًا عن عيوب **الحضارة** العراقية التي سَمحتْ لمثلِ هذه التصرُّفات المشينة بأن تدمِّر فنَّهم، رمزَ أمجادِ تلك الحضارة نفسها. يقول دانيال بايبس، مُرشَّحُ بوش للمعهد الأميركيّ للسلام: «إنّ الطبيعة العنفية المتأصّلة في المجتمع العراقيّ الحديث» هي التي أدّت إلى «الانزلاق نحو البربرية.»(٤) هكذا، خلافًا لحال نابوليون مع الحضارة الإيطالية، لم يصبح الأميركيون الغزاةُ وارثي الحضارة العراقية، وإنّما... معلِّميها. فهل يكون شعارُهم: «بغداد لم تعد في بغداد. إنّها الآن في حضانةٍ أميركية؟»

«الكلّ قلقٌ على ذلك الفنّ العراقيّ القديم الذي نُهب أثناء الحرب. ولكنّني أتساءل عن كمية الفنّ العراقيّ النفيس الذي أُنْتج خلال السنوات الثلاثين الأخيرة.»(٥) حين كَتَبَ تومي توملينسون هذا في جريدة أميركية في أوائل أيار (مايو) من هذا العام، كان الأميركيون قد سَمعوا الكثيرَ عن المزهريات العراقية القديمة، ولكنّهم واصلوا تشكيكَهم بكثرة المزهريات **الحديثة** التي يُمْكن أن توجد في العراق نظرًا إلى ندرة الحديث عن الثقافة العراقية المعاصرة. فإنْ لم يُبدع العراقيون المحْدَثون فنًا نفيسًا من مستوى راي تشارلز و«كازابلانكا» (كما عَرَّفَ توملينسون الفنَّ النفيسَ!) فلن يكون حرمانُهم - عن غير قصدٍ أصلاً - من إرثهم الثقافيّ في سياق «تحريرهم» من القمع أمرًا سيِّئًا في كلّ حال!

إذا وَضعنا جانبًا الجهلَ والغرورَ الهائليْن وراء التأكيد السابق فستُدْهشنا، مع ذلك، ديمومتُه وفعّاليتُه. ذلك لأنّه الحجّة عينُها التي سبق أن استخدمها أنصارُ نابوليون لتبرير الاستيلاء على الكنوز الإيطالية، إذ كَتَبَ سبعةٌ وثلاثون فنانًا في صحيفة **غازيت ناسيونال** الحكومية ما يلي: «كان الرومان كسالى، وبرابرةً مؤمنين بالخرافات، لا يَحترمون كنوزَهم ولا يستحقّونها.»(٦) ولقد تحقّق الزعمُ الفرنسيُّ، بخصوص دونية الرومان الثقافية، على أرض الواقع. فما إنْ وُضعتْ منحوتاتُ «ڤينوس كابيتولين» و«أبولو بلڤيدير» و«لوكوون» وغيرُها في متحف اللوڤر المفتتَح حديثًا في باريس حتى فَقَدَتْ روما منزلتَها كمحجّةٍ للإبداع الفنيّ الأوروبيّ وتراجعتْ إلى منزلة «المَهْد،» أي

١ - "Secretary Rumsfeld's Interview with NBC Meet the Press," interviewer Tim Russert, 13/4/2003.

٢ - في ذلك الوقت كانت قد ظهرتْ عدّةُ تقارير عن قيام صحفيين أميركيين وجنود أميركيين بسرقة قطع فنية عراقية وتهريبها.
See Melinda Liu & Anne Underwood, "Babylonian Booty," in *Newsweek*, 24/3/2003; "Raiders of the Lost Art," in *The Telegraph*, 22/4/2003; Bernard Weinraub, "Artifacts Trickling Back to Looted Iraqi Museum," in *The New York Times*, 24/4/2003.

٣ - Walter Sommerfeld, "Plundering of Museums in Baghdad," trans George Paxinos, in *Suddeutsche Zeitung*, 8/5/2003.

٤ - Daniel Pipes, "An Iraqi Tragedy," in *The New York Post*, 22/4/2003.

٥ - Tommy Tomlinson, "Culture Has a Way of Breaking Out," in *The Charlotte Observer*, 4/5/2003.

٦ - Mainardi, op. cit., p. 156.

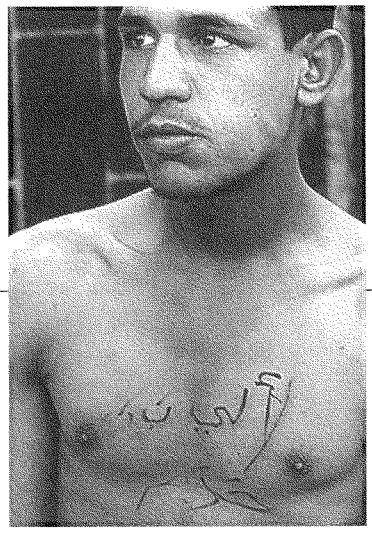

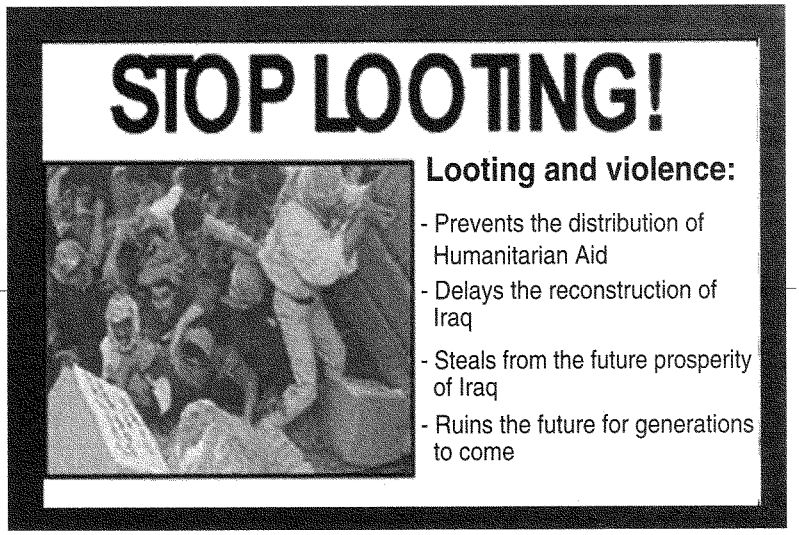

عَرَضَ بروكس كتيّبات لتعليم العراقيين مساوئ السلب؛ يسارًا: عراقيّ متّهم بالسرقة كتب الأميركيون على جسده «علي بابا حرامي»

إلى المكان الذي منه بَدَأَ الفنُّ فحسب. ومع حيازة باريس للروائع الفنية التي لا فنَّ ممكنًا من دون دراستها، تحوّلت العاصمةُ الفرنسية إلى «مدينة الأنوار،» وإلى مركز تدريبٍ لأجيالٍ من الفنانين حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية. بل لم تَبلغْ أيُّ حركةٍ فنيةٍ إيطاليةٍ تاليةٍ المركزَ الذي تبوّأهُ الفنُّ الفرنسيُّ ما بعد ناپليون.

◆ ◆ ◆

ما يَصْعب على علماء الآثار فهمُه هو أنّ لدينا سوقًا مضبوطةً. ففي ظنِّهم أنّ المجموعة الفنية الأفضلَ انتقاءً تساعِد هي نفسُها سارقي القبور [القديمة] وتُغْرِيهم.

ويليام پيرلستاين،

رئيس المجلس الأميركيّ للسياسة الثقافية[١]

حين وصلتْ إلى الجرائد العالمية أنباءُ سرقة المتحف الوطنيّ والنفائس الحضارية الأخرى في العراق، لم يكن الكلُّ مُجْمعًا على أنّ ذلك يشكّل جريمةً ضدّ التراث العراقيّ. بل أَظهرت السرقةُ لبعض المتعاملين بالتحف القديمة في الغرب أنّ التراثَ نفسَه جريمةٌ بحقّ السوق الحرّة. فقد رأى المُنْشِدون في جوقة السوق الحرّة أنّ القوانين «الاحتفاظية» الخاصة بملكية الأعمال الفنية (مثل اتفاقية اليونسكو بصدد الملكية الثقافية عام ١٩٧٠)[٢] تعوّق «الانتشارَ الحرَّ» للأشياء، بل وتضعها أيضًا أمام مخاطر التدمير. والحال أنّ آندريه إيميريتش، وهو تاجر أميركيّ بارز في مجال التحف الأميركية اللاتينية، عَرَّف «المأساةَ» في الحالة العراقية بأنّها أولئك الأخلاقويّون الذين يُصرُّون على الحديث عن «الفنّ المسروق أو المنهوب» ولكنّهم يَرْفضون أن يُقرُّوا بأنّ «أفضلَ ما يَخْدم الأخلاقيةَ العليا إنّما هو السوق الحرّة.»[٣] وقد نفى جون هنري ميريمان، عضوُ «المجلس الأميركيّ للسياسة الثقافية،» وهو مجموعة ضغطٍ مشكّلة من تجّار الأثريات سَبَقَ أن التقت في ٢٤ كانون الثاني (يناير) مسؤولين في البنتاغون لمناقشة السياسةِ الواجبِ اتّباعُها حيال الحِرَفيات العراقية، أن يكون قد حاول تغييرَ القوانين الأميركية التي تحظِّر استيرادَ الأثريات، غير أنّه ألحّ على أنّ «السماح بالتجارة الخاصة في الأثريات سيحميها على نحوٍ أفضل، إلى حين يُمْكن إرجاعُها إلى العراق في موعدٍ لاحق.»[٤] ومن ثمّ راحت أصواتٌ من الصحافة العالمية تسبِّح بحمد التجارة الحرّة في حماية التراث العراقيّ المسروق، فبِتْنا نَسْمع أقوالاً من نوع: «الشيء الوحيد الذي يَحْمي الأثريات، الآن، للتوّ، هو أن تكون في حوزةِ شخصٍ يَعتقد أنّ بإمكانه أن يجني منها المالَ...»[٥] أو: «إنّ فكرةَ أنّ السرقة ربما تمّت على يدِ لصوصٍ عارفين قلّلتْ من احتمالِ أن تُذوَّب التحفُ النفيسةُ للاستفادة من قيمة المعدن [الذهب] فيها.»[٦] هنا التجّار يُنْشدون بلا ريب: «بغداد لم تعد في بغداد. إنّها الآن في السُّوق الحرّة!»

---

١ ـ See Dennis Roddy, "Looting at Baghdad Treasures Shines Light on a 'Dirty' Business," in *Pittsburgh Post*, 27/4/2003.

٢ ـ جدير بالذكر أنّ ٩٩ دولة باستثناء الولايات المتحدة و«إسرائيل» وقّعتْ على هذه الاتفاقية. وفي عام ١٩٨٣ وافق الكونغرس على معظم موادها وشرّعها في قانون أميركيّ خاصّ ـ وهذا ما يحاول «المجلس الأميركيّ للسياسة الثقافية» تغييره.

٣ ـ Andre Emmerich, "Let the Market Protect Art," in *The Wall Street Journal*, 24/4/2003.

٤ ـ Oliver Burkeman, "Ancient Archive Lost in Baghdad Library Blaze," in *The Guardian*, 15/4/2003.

٥ ـ Joe Bob Briggs, "Burning Museum? Ho Hum," at www.upi.com, 17/4/2003.

٦ ـ "Museum Looting May Have Been Planned," in *St. Petersburg Times*, 17/4/2003.

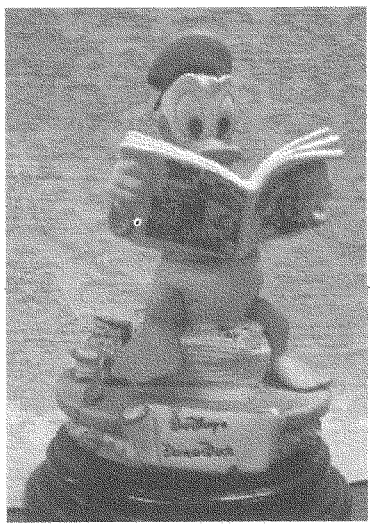

دعاة التجارة الحرّة يتجاهلون «المَوَض»: مخروط مسماريّ عمره ٤٠٠٠ سنة أرخص على ebay من تمثال دونالد داك!

لقد كبرتْ سوقُ الفنّ على نحو هائل في العقود القليلة الأخيرة، بعد اكتشافِ مزيدٍ من المستثمرين أنّ الأشياء المعتبَرة قد تأتي بأرباح كبيرة في زمن قصير، وأنّها تقدِّم أمانًا أطولَ مدًى من الأسهم ذاتها.[١] ويؤكّد دعاةُ الاتّجار الحرّ بالأعمال الفنية أنّ قيمتَها في السوق هي أفضلُ ضمانةٍ لسلامتها، لسببين على الأقلّ. الأول هو أنّ شراءَ الفنّ، بدلاً من مجرّدِ العثور عليه بالتنقيب والحفر، مؤشّرٌ على الرغبة والقدرة في الحفاظ عليه. الثاني يرى أنّ أصحاب المجموعات الأثرياء أو المتاحفَ الغنية أو الدولَ الغنية هم/هي الأقدرُ على توفير بيئات آمنة للفنّ ولوصول الجمهور إليه. غير أنّ الحجّة الأولى تتجاهل «المُوَض» الشرائية التي تحوّل كنوزَ الأمس إلى نفاية اليوم (فمثلاً يباع مخروط مسماريّ عمرُه ٤٠٠٠ سنة على موقع ebay الإلكترونيّ بسعرٍ أدنى بكثير من دولاب هواء لدونالد داك يعود إلى أربعين سنة فقط).[٢] كما أنّها تتجاهل قانونَ العرض والطلب الذي يقول إنّه كلّما ضاقت سوقُ السلعة ارتفعتْ أسعارُها: فمثلاً يبيِّن التهريبُ المتزايدُ للفنّ الأفغانيّ وارتفاعُ أسعاره أنّ سوق المتّجرين به استفادت من التدمير الهائل الذي لَحِقَ بالتحف الأفغانية أثناء حكم الطالبان وبعده.[٣] أمّا الحجّة الثانية فتفترض أنّ ثمّة أماكنَ في العالم هي، في حدّ ذاتها، أكثرُ أمانًا من أماكن أخرى. لكنّ الشوفينية الثاوية في هذا التفكير، الذي استخدَمَه ميريمان لمنع عودة بقايا هيكل پارثانون إلى أثينا،[٤] تعرَّضتْ لضربة حاسمة في ١١ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١ حين تَحطَّم أكثرُ من ٣٠٠ عمل للنحّات الفرنسيّ الشهير أوغوست رودان (أيْ نصف أعماله) مع انهيار البرجيْن.[٥]

لا يَقتصر الأمرُ على عجز السوق الحرّة عن تقديم ضماناتٍ خاصةٍ للأعمال الفنية، بل يُمْكن أن تكون لها تبعاتٌ مدمِّرةٌ أيضًا. وهذا ينطبق بشكل خاصّ على الأثريات، التي لا يزداد «إنتاجُها» لتلبية حاجات السوق إلاّ بزيادة أعمال التنقيب غيرِ الشرعية.[٦] فلقد وَثّق علماءُ الآثار كيف أنّ الإفقار المنظَّم على امتداد العالم، نتيجةً للبرلة الاقتصادية، أدّى إلى أن يُغيِر بعضُ أفراد الشعب على مُدُنه العريقة للسطو على آثارٍ يبيعونها في السوق السوداء.[٧] والنتيجة أنّ أكثر من ٩٠٪ من الموادّ المعروضة حاليًا للبيع في مزادات لندن الرئيسية تفتقر إلى معلومات ثمينة عن مصادرها،[٨] ويُقدَّر أنّ ٨٥ ٪ من السجلّات التاريخية في بعض المجالات الآثارية دُمِّرتْ بسبب أعمال الحفر العشوائية.[٩] إنّ أخطار هذه السوق النَّهمة على العلوم بالغة. فكثيرٌ من الأدلّة التي يُمْكن أن تستخدمها

١ ـ National Museum of Australia,"Fighting the Illicit Traffic of Cultural Property," www.nma.gov.au/icom/traffic.html.

٢ ـ Katherine Mieszkowski,"Hey, Mister - Wanna Buy a 4,000-Year-Old Cuneiform Tablet for $10?" *Salon.com*, 11/5/2002.

٣ ـ Jason Burke, "Looted Afghan Art Smuggled to London," in *The Observer*, 11/3/2001

٤ ـ John Henry Merryman, "Who Owns the Elgin Marbles?" in *Art News*, Sept. 1986, p. 100-109.

٥ ـ Harry Bellet,"L'art sous les décombres du World Trade Center," in *Le Monde*, 26/9/2001.

٦ ـ See Cristina Ruiz, "My Life as a Tombarolo," in *Art Newspaper*, 2002.

٧ ـ McGuire Gibson, "The Loss of Archaeological Context and the Illegal Trade in Mesopotamian Antiquities," in *Culture Without Context*, issue # 1 (Autumn 1997), at www.mcdonald.cam.ac.uk/IARC/cwoc/issue1/LossContext.htm

٨ ـ Christopher Chippindale, "The Central Values of Ancient Objects: The Connoisseur's and the Archaeologist's," Cambridge University Museum of Archaeology & Anthropology, www.mcdonald.cam.ac.uk/Projects/Chip/chip209.htm

٩ ـ Ibid.

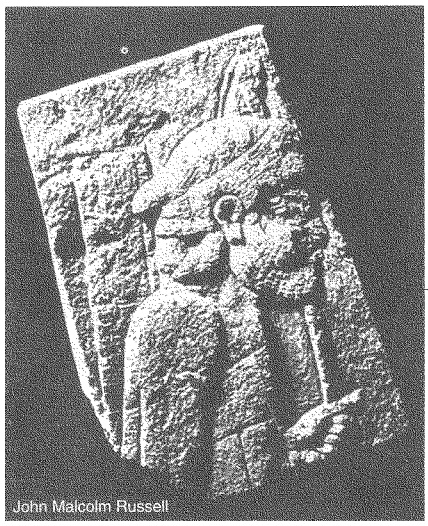

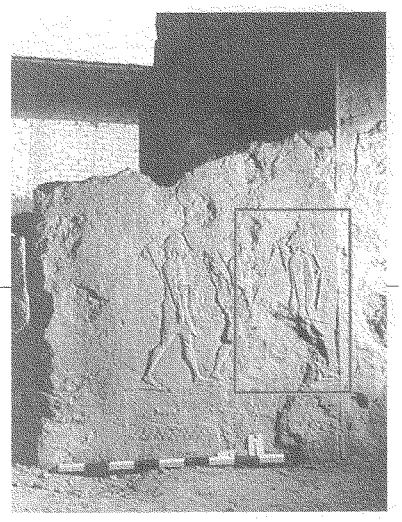

بدلاً من سلسلات متجاورة من الأفاريز بتنا نجد أجزاء مبعثرة. إفريز من نينوى قبل تقطيعه وبيعه في السوق الحرّة.. وبعده

الأجيالُ الباحثةُ قد دُمّر، وتَنْحصر إمكانيةُ المعرفة في أعشارٍ قليلةٍ ممّا كان متوفّرًا ذاتَ يوم. وزاد الطينَ بلّةً أنّ البحث العلميّ منحصر في البلدان الغنية التي تستطيع أن تشتري الأعمالَ الفنية. لذلك فإنّ «سرقة القبور القديمة،» بتعبير پيرلستاين، لا تَسْلب الموتى الكنوزَ التي كان القدامى يَعتقدون أنّها ترافقهم إلى العالم الآخر، بل تَحْرم الأحياءَ أيضًا ثروتَهم الثقافية.

وهكذا يَجْدر بنا أن نَعتبر أعمالَ السلب الأخيرة أوجَ ما بلغتْه عمليةُ إفقار العراق اقتصاديًا وثقافيًا بقيادة الولايات المتحدة طوال اثنيْ عشر عامًا، وهي عمليةٌ واجهها العراقيون بتعلّم مهاراتٍ مختلفةٍ للبقاء على قيد الحياة. فقَبْل الحصار لم يكن هناك تقريبًا أيُّ اتّجارٍ غيرِ شرعيّ بأثرياتِ حضارةٍ ما بين النهرين.[١] وخلال السنوات الاثنتيْ عشرة الأخيرة حلّت الجرّافاتُ التي تَقْلع أجزاءً بأكملها من المدن العريقة محلَّ فِرَقِ علماء الآثار العراقيين المحترفين الذين كانوا ينكبّون بالفرشاةِ الدقيقة على إزالة طبقات المساكن المتراكبة. لقد محت أعمالُ التنقيب غيرُ الشرعية، هذه، إمكانيةَ العثور على آثارٍ جديدة كانت ستقودُنا بلا ريبٍ إلى معلوماتٍ هامة جدًا عن الحضارات القديمة.[٢] وبدلاً من القصور العريقة كذاك الذي في نينوى، المزخرفِ بسلسلاتٍ متجاورةٍ من الأفاريز المنحوتة بدقّة متناهيةٍ، بتنا نجد أجزاءً مبعثرةً بحجم الكفّ من رسوم بسيطة و«مهضومة.»[٣] وحدها الأشياءُ التي يَخفّ على المهرّب حَمْلُها وتَلْفتُ انتباهَ الزبائن بشكلها، هي التي يُمْكن بيعُها في سوقٍ تتغذّى من قلّة المعلومات، الأمرُ الذي أدّى إلى تقطيع القطع الأثرية الكبيرة ورمْيِ كلّ ما ليس «مثيرًا» أو «مهضومًا.»

اللافت أنّ القيود على التجارة العراقية أيامَ الحصار أدّت إلى تنازلاتٍ من قِبل الفنانين العراقيين المحْدثين، ولاسيّما بعد أن دَفَعَ الحصارُ بالسلطات العراقية إلى وقف بعض أشكال الدعم للفنانين مثل التعليم المجّاني والمعارض المنتظمة. فوَجَد الفنّانون الموهوبون أنّ الوسيلة الوحيدة للعيش هي في نَسْخ لوحات استشراقية رغم أنّها تروِّج لتخلُّفِ العرب. وكانوا أحيانًا يوقّعون لوحاتهم المنسوخةَ هذه بأسماء مزوَّرة.[٤] وهكذا، بدلاً من أن يُسْهم تلامذةُ شاكر حسن آل سعيد، وجواد سليم، وفائق حسن، وغيرهم في نموّ الفكر العربيّ المعاصر، رُحْنا نَشْهد تكرارًا بعد تكرار لأعمالِ جيروم، وڤيرنيه، وبنجامان ـ كونستان التي تجمّدُ المجتمعَ العربيَّ إلى الأبد في حقبةٍ ما قبل التاريخ الحديث. شيئًا بعد شيء، باتت تشظيةُ التراث العراقيّ طريقةً فعّالةً للعيش. وما كان تراكبًا متداخلاً للحضارات، تاريخيًا وإثنيًا وثقافيًا، أصبح نتيجةً للحصار الاقتصاديّ وللجبروت السياسيّ الأميركيّ. أشياء تلائم رغبةَ السوق الحرّة في الخارج وتيارَ الخصخصة. واليوم لا تملأ الأعمالُ المسروقةُ متاحفَ الغزاة بل «المولات،» والمزاداتِ، والتجارةَ عبر الإنترنت. وهكذا تُثْبت هذه السوقُ حيويّتَها ومركزيتَها.

من هنا فإنّ اختزال أعمال التنقيب غير الشرعية إلى محض «سرقة للقبور القديمة،» على نحوِ ما قال پيرلستاين، هو تحويلٌ للمجتمع المعاصر الذي سُلِب من موروثه الثقافيّ إلى قبر جديد. غير أنّ

١ - Alan Riding, "Experts Despair of Iraq's Stopping Loss of Relics," in *The New York Times*, 5/5/2003.

٢ - Robert Trussell, "History at Risk," in *Kansas City Star*, 13/4/2003; Chippindale, op.cit.

٣ - Russell, op cit.

٤ - من مقابلةٍ شخصية أجريتُها مع ماهر يونس (بيروت ٢٠٠١/٢/٢٦) ومع برايان ماكديرموت صاحب «غاليري متحف» (لندن ٢٠٠١/٤/١٧).

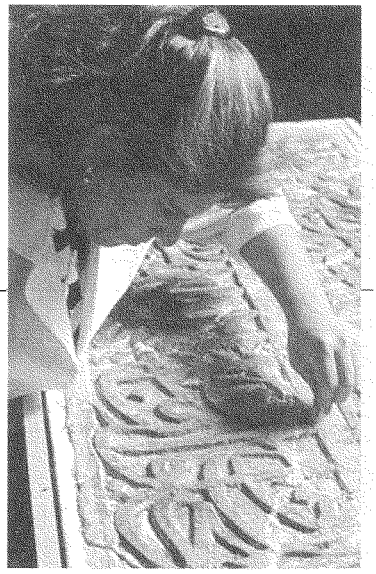

تسمية نهب العراق الحديث «نهبًا لمهد الحضارة» تتجاهل الدور الثقافيّ الحاليّ للشعب العراقيّ: عراقيون في متحفهم الوطنيّ عام ٢٠٠٠

العراقيين المعاصرين يَرتبطون بتراث بلادهم الحضاريّ بروابط ملموسةٍ ومثمرةٍ كثيرة. فهذا التراث على الصعيد الاقتصاديّ كان لعقودٍ خَلَتْ هو الأساسَ في توفير مئات الوظائف للعراقيين: من صيانة، وإشراف، وحراسة، ودراسة، وإرشاد، وتدريب، ورعايةٍ للسيّاح. وعلى الصعيد الثقافيّ كان هذا التراث، فنًا وأدبًا، أساسًا لانتشار قطاع تربويّ عامّ أَنْتج ذاتَ زمنٍ مجموعةً رائعةً من الباحثين والفنانين العرب. وعلى الصعيد السياسيّ كان هذا التراث عاملاً موحِّدًا لبلادٍ شاسعة ولسكانٍ متنوّعين.[١] وعلى الصعيد الإيديولوجيّ كان هذا التراث دليلاً ملموسًا على «وحدة الحضارة العالمية»[٢]: فالحقّ أنّ التراث الحضاريّ العراقيّ، بأعماله الفنية التي تَسبق الإنجازات الإغريقيةَ زمنيًا وتَفُوقُها أهميةً وتُبرز ترابُطَ التاريخ البشريّ،[٣] يَدْحض التسلسلَ الخطيَّ الحضاريَّ المزعومَ (اليونان ← روما ← فرنسا) الذي حاول ناپوليون أن يَفْرضه حين وَضَعَ الغنائمَ الرومانية في متحف اللوفر معلنًا فرنسا وريثةَ روما والمالكةَ الحصريةَ للحضارة. والحال أنّ منحوتة «رأس المرأة من مدينة الوركاء،» التي يَستخدمها أحدُ أبرز مؤرّخي فنٍّ ما بين النهرين (جون مالكوم راسل) ليبيِّن لتلامذته «درجةَ تخلُّف اليونانيين حين اكتشفوا النحتَ [بعد ثلاثة آلاف سنة]»،[٤] تقوّض نسخةَ بوش من النزعة الحصرية الناپوليونية: «إمّا معنا أو ضدّنا.»

وإذ نتتبّع سلسلةَ الارتباطات ما بين التراث العراقيّ وورثته العراقيين الجُدُد لا يسعنا إلاّ أن ندرك أيّ أذًى سيَنْجم عن حسبان الغنى الثقافيّ ملْكًا للماضي وحده. فتسميةُ نهب العراق الحديث «نهبًا لمهد الحضارة»[٥] تتجاهل ـ شأنَ جملة پيرلستاين عن «سرقة القبور القديمة» ـ الدورَ الثقافيَّ والحضاريَّ **الحاليّ** للشعب العراقيّ. وبالمثْل، فإنّ تسمية المتحف الوطنيّ العراقيّ «بيتَ الأثريات التي تعود إلى ١٠ آلاف سنة»[٦] تُغْفل ضرورةَ أن تُسهم هذه الأثرياتُ في تطوير الإنتاج الثقافيّ طوال آلافٍ من السنوات **القادمة** أيضًا.

لقد شَهدت السنواتُ الفاصلةُ بين نهب «مهد الفنّ» (إيطاليا) عام ١٧٩٨ ونهبِ «مهد الحضارة» (العراق) عام ٢٠٠٣ تعميمًا شبهَ كامل لنظرةٍ تجزيئيةٍ مشظِّيةٍ إلى الإنتاج الثقافيّ. وها إنّ السوقَ اليوم تُعامِلُ الفنَّ وكأنّه أشياء خامدةٌ، ناجزةٌ، منفصلةٌ عن مسرح إنتاجها، بدلاً من أن تَعدّه جزءًا لا يتجزّأ من سيرورة المجتمع الذي أُنْتجتْ فيه. لكنّ هذه النظرةَ «السُّوقية» ليست هي النظرةَ الأوحدَ في الماضي ولا في الحاضر، وإنْ صارت هي الطاغيةَ في فهم الفنّ خلال القرنيْن الماضيين. وإذا بدا للبعض أنّ تعريف الفنّ سوقيًا أمرٌ طبيعيّ، فإنّ إجبار العراق على تبنّيه يدعونا إلى التمعُّن في مدى صحّته. فسواء أخطّطتْ قواتُ التحالف لأعمال السلب أَمْ خطّطتْ

١ ـ Alphonso van March, "Experts Fear for Iraq's Archaeological Treasure," at www.cnn.com, 1/3/2003.

٢ ـ As noted by Gabriel Ash, "Laissez-Loot," at www.yellowtimes.org, 1/3/2003; CF. Michael Patrick O'Conner and Sidney Griffith, "The Lost Heritage of Iraq," in *The National Catholic Reporter*, 9/5/2003.

٣ ـ عن ترابط التاريخ البشريّ في التراث العراقيّ، انظرْ: فاروق يوسف، «ماذا بقي من ذاكرة العراق... للعراقيين والعالم؟» **الحياة**، ٢٠٠٣/٤/١٩؛ وطالب البغدادي، «مَنْ أشعل النار في التراث العراقيّ؟» **السفير**، ٢٠٠٣/٥/٣؛ وزاهي حواس، «رحلة في التاريخ العراقيّ،» **السفير**، ٢٠٠٣/٥/٥.

٤ ـ Dalya Alberge and Alan Hamilton, "No Stone Unturned in Hunt for Looted Treasures," in *The Times Online*, 15/4/2003.

٥ ـ "Robbing the Cradle," 60 Minutes, CBS, 30/4/2003 at www.cbsnews.com/stories/2003/04/30/6011/main551727.shtml.

٦ ـ BBC, 15/4/2003, http://news/bbs.co.uk/2/hi/entertainment/2947251.stm.

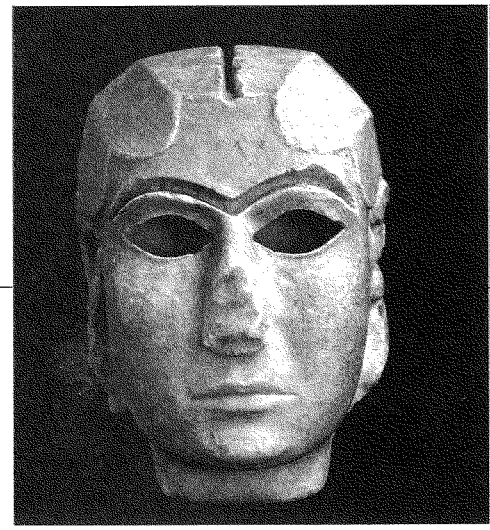

إنّ منحوتة «رأس المرأة من مدينة الوركاء» تقوّض نزعة بوش الحصرية، «إما معنا أو ضدّنا»

للسماح بها، فإنّ سرقة الكنوز العراقية ستؤدّي إلى تغييرات عميقة في المجتمع العراقيّ (كما حدث في أفغانستان والبلقان وپاناما من قبل، ويا للمصادفة!). فلقد وَفَّرَ السلبُ، الذي نفّذه عراقيون، تبريرًا أميركيًا لوجوب «تربية» شعب الغوغاء ولإعادة «تأهيله» تحت الحراب الأميركية. هذا من جهة. ومن جهة ثانية حَوَّلَ السلبُ التراثَ الثقافيّ العراقيّ المنهوب إلى أجزاءٍ صغيرةٍ منتَزَعةٍ من كلٍّ حضاريٍّ متكامل، أجزاءٍ قابلةٍ للنقل من مكانٍ إلى آخر، قيمتُها في ذاتها فقط، ودَمَّرَ الأسسَ المادية لتقييمات أخرى للفنّ.

◆ ◆ ◆

في الأسابيع التي تلت العرضَ التلفزيونيّ لأعمال السلب في العراق، حدثتْ واقعتان قد تفيدان العراقيين كثيرًا في إعادة تشكيل تراثهم المجزّإ والمنهوب.

ففي الأول من أيار (مايو) أَعْلَن متحفُ كارلوس في أتلانتا (الولايات المتحدة) أنّه سيُرجع إلى مصر مومياءَ رمسيس الأول التي كانت قد سُرقتْ في منتصف القرن التاسع عشر واشتراه متحفُ كارلوس السنة الماضية.[1] ووَعَدَ رئيسُ المجلس المصريّ الأعلى للأثريات السيّد زاهي حواس بأنّ مصر ستعوِّض متحف كارلوس بالتعاون مستقبلاً في مجال التنقيب والمعارض المشتركة. وبعد أسبوع تسلَّم حواس نفسُه بلاطةَ ضريحٍ فرعونيةً من شرطة نيويورك بعد ملاحقةٍ المهرّب الأميركيّ فريدريك شولتز الذي تولّى قضيتَه ـ ويا للمصادفة ـ ويليام پيرلستايْن![2] إنّ هاتيْن الواقعتيْن تبشِّران بضبطِ سوقِ الفنّ المهرَّب، وبإنعاش تراثِ مصر الحضاريّ، وبإعادةِ توجيه التعاون العلميّ إلى المراكز الأثرية **خارج** العالم الأول. ومن ثم يتوجّب على كلّ مَنْ يَرْفض «أن تُنقل بغدادُ» إلى مكانٍ آخر، ويَرْفضُ نشيدَ رامسفلد الممجِّدَ للتفوُّق الحضاريّ ونشيدَ پيرلستايْن المسبِّحَ بحمد التجارة الحرّة، ما يلي:

- المطالبةُ بعودة الفنّ العراقيّ المنهوب ماضيًا وحاضرًا.
- مناشدةُ المتاحف العالمية التي تتوفّر على قطعٍ أثرية سَبَقَ أن أعارتها إيّاها الدولةُ العراقيةُ بشكل شرعيّ (عبر أعمال التنقيب المشتركة مع العراق) أن تقوم هي اليوم بإعارة العراق بعضَ الآثار الشبيهة بتلك التي سُرقتْ، إلى حين استرجاع المسروق.
- مناشدةُ المجتمع الدوليّ دَعْمَ المثقفين العراقيين لكي يواصلوا أعمالَ البحث والتوثيق التي أُهملتْ أو تراجعتْ طوال سنوات الحصار الجائر.

صحيح أنّ الدعم الأخير قد بدأ يُنفَّذ على أرض الواقع (عبر دعم اليونسكو وخبراء مستقلين وغيرِ ذلك). غير أنّ هذه المطالب جميعَها ينبغي ألاّ تبقى في إطار التعبير عن النوايا الحسنة فقط. فالمجتمع الدوليّ مسؤولٌ بأجمعه، وإنْ بدرجات متفاوتة، عن الإرهاب التي استمرّ اثنيْ عشرَ عامًا تحت اسم «حصار العراق.» وفقط حين يُسْهم المجتمعُ الدوليّ في تمكين العراقيين من إعادة بناء إرثهم الثقافيّ ومن إعادة ربطه بحياتهم المعاصرة، يُسْهم الفنّ ـ كرمز ثقافيّ وسياسيّ ـ لا في بناءِ إمبراطوريةٍ بل في تجاوز إرهابها.

بيروت

١ - Mike Toner, "Emory Museum Returning Mummy to Egypt," in *Atlanta Journal Constitution*, 3/5/2003.

٢ - Barry Millier, "Ancient Stone Found in New York is Returned to Egypt," in *The New York Times*, 8/5/2003; Nancy Wilkie, "Landmark Decision," in *Archaeology*, 55:3 (May/June 2002).